رحـــــــلة دبـــــــــي (٢)

محمد خضير

قراءة الرمال

عثرنا، أنا ومحمود عبد الوهاب، في إحدى مكتبات دبي، على طبعة جديدة من كتاب (الرمال العربية) الذي وضعه ولفريد ثيسجر عن رحلته في الجزيرة العربية خلال الأعوام ٤٥-١٩٥٠. قطع ثيسجر ما يقرب من عشرة آلاف ميل على ظهور الجمال، وعبر الربع الخالي مرتين، العبور الأول من صلالة والعود ة إليها، والثاني من حضر موت إلى سواحل الإمارات المتصالحة. التقط ثيجسر صوراً فوتوغرافية نادرة للقفار الرملية الموحشة، ورسم صوراً قلمية مؤثرة للبدو الذين رافقوه أو ساعدوه، وأهمهم مرافقاه ابن غبينة وابن غبيشة اللذان أهدى إليهما الكتاب.

عثر ثيسجر على أثمن شيء في حياته: "السلام المنبعث من العزلة" في صحراء الجزيرة الشاسعة الخالية، واكتساب صداقة البدو من آل كثير وآل راشد والعوامر والمهرة والوهيبة والدروع. وعثرت في قراءتي الثانية لأمتع كتاب عن الصحراء، بين مجموعة مكتبتي من كتب الرحلات والسير الذاتية، على خطوط سير دارسة في قصصي الأولى.

عجبت بعد قراءتي الطبعة الأولى من كتاب (الرمال العربية) عام ١٩٦١ كيف لا يدفع (هيام الصحراء) قارئاً مستقراً في مكان واحد إلى أن يخرج من إساره. ثم هدأ عجبي لما اتسعت رؤيا الصحراء في داخلي وصقلت قيودي بسرابها الذهبي، وخف وزن التاج الصخري الذي نؤت بحمله. حتى جاءت رحلة دبي ورأيت ناطحات الزجاج ترتفع فوق الربع الخالي الأخير من رؤياي، فتذكرت (طيبوثه) صبية الرمال والأخت الصغرى لابن غبيشة وابن غبينة.

عاد ثيسجر إلى أماكن رحلته عام ١٩٧٧ فتملكه الامتعاض وخيبة الأمل بسبب اختفاء الحياة البدوية التي وصفها في كتابه إلى غير رجعة، وقيام الأبنية الشاهقة ومصافي النفط في مواقع الصحراء. وفي عام ١٩٩٠ حضر معرضاً لصوره في (ابو ظبي)، فروض نفسه على قبول زحف المدن على الصحراء، وخالطت اعجابه بوسائل الحضارة المستحدثة ذكرى البداوة وطبائع رجالها وسلام وجوهها التي شاخت أو سبقته إلى العالم الآخر. (توفي ثيسجر في تموز ٢٠٠٣ عن عمر ناهز الثالثة والتسعين).

وما زالت إمارات الساحل المتصالحة تحتفظ بالسلام والهدوء اللذين ينبعان من أعماق الرمال وغموضها، فلا تسمع نفير بوق سيارة على شدة تزاحم السير في شوارعها، ولا يراقبك شرطي أو حارس، وقلما ينفرك كلام من مواطن تلتقيه في فندق أو مصرف أو دائرة حكومية. أما الأسواق فباعتها هنود وشرق آسيويون سرعان ما تألف غرابة السنتهم وتنوع ملبسهم وتقطيب وجوههم، وروادها أوربيون منشرحون تتجول نساؤهم بنحور عارية. وعداهم ترى مزيجاً بشرياً بين أرصفة خضراء، وعلى السواحل، قبل أن تتذكر أنك تحل في أرض كانت قبل خمسين عاماً محجوبة بستار من السراب الأصفر يفصل الواحات الداخلية عن ساحل البحر، وقد قامت مقامها اليوم أبراج مصفحة برقائق زرق، يغمر نصفها ضباب كثيف أول الصباح وآخر الليل. إنك حقاً في دبي مدينة البنوك والفنادق وأبراج التجارة، وكانت في عام ١٩٤٨ "مرفأ ترسو فيه مراكب محلية مائلة على الوحل عند أطراف الماء". أو إنك في مدينة ابو ظبي مركز الدولة المعمور، وكان الناس "يترعبون في حوانيتها الصغيرة يثرثرون ويشربون القهوة، أو يراقبون المراكب تغلف وتدهن بزيت كلب البحر استعداداً لموسم صيد اللؤلؤ" قبل خمسين عاماً. أو في الشارقة، وكانت "مدينة صغيرة ومتهدمة على الشاطئ، فيها مطار بريطاني"، وهي اليوم راعية الثقافة والفنون. أو في مدن عجمان والفجيرة ورأس الخيمة والعين، لآلئ البحر وعرائس الرمال.

في الثاني من كانون الأول ١٩٧١، اتحدت مدن الساحل السبع المتصالحة في هيكل دولة الإمارات، وحقق مشايخها انتقالاً سريعاً من طبيعة الصحراء الجافة إلى طبيعة التمدن الحديث، وبنوا مرابع آمنة في نهاية الطرق المخيفة لمتاهة الربع الخالي، طبقوا فيها الشرائع الأصيلة لدستور المصالحة والانفتاح بأسلوب تشاوري فريد. وما فات الرحالة الأوربيين (فيلبي وتوماس وثيسجر) إدراكهم من حلم النهاية، بات يدركه سائحون متقاطرون على الإمارات العربية المتحدة يحسنون قراءة الرمال.

عندما كان ثيسجر يستكشف رمال أم السميم المتحركة، اقترح على مرافقه (ابن طاهي) قراءة الرمال لمعرفة مكان وجود المها: "مهد الرمل أمامه ورسم باصبعين صفاً من النقاط، وحدد المسافة بينها بالأشبار، وتمتم ولمس لحيته، وأخذ يعد ليعرف ما إذا كان عدد النقاط فردياً أو زوجياً في كل شبر، ثم وضع علامات على الرمل ومسح صف النقاط وبدأ من جديد. وكان لا يزال يتمتم. ثم قال أخيراً: توجد مها إلى الجنوب بالقرب من سحمة".

كانت تلك طريقة البدو في استقراء غيب الرمال، وهي طريقة مواطني الإمارات الحديثة في تفرس حاسباتهم الإلكترونية وتصنيف سكان سواحلهم. ينقسم سكان الإمارات إلى: مواطنين أصليين، ووافدين قدموا للعمل والإقامة فيها. يتجنس المقيمون الوافدون بجنسيات عربية وآسيوية وأوروبية، فهم مزيج من الأجناس والأذواق والكفاءات، يلتزم بقوانين الإمارة التي يحل ضيفاً عليها ويحذر انتهاكاً أشد الحذر. ويشكل العراقيون أكثرية عربية بين الجاليات، إلا أن علاقاتهم محكومة بالحذر والتكتم ومحسوبة بحساب المصالح والمواقع. وليس هذا شعور الزائر الحر الذي يستقرئ كتاب الرمال، وينشد السلام مع العزلة، مثل ثيسجر وغيره من المقيمين المؤقتين على السواحل المسالمة الذين يجدون ضوالهم في هبات الطبيعة وأسرار المدن ولغاتها.

ليلتان

قراءة الرمال شعراً أتقنها منشدان شبراً المسافات بين مدن العالم شبرأشبراً ، ورسماً خطط الرحيل والفرار من بيت قديم إلى بيت حديث، ثم مسحا كل البيوت إلا بيت الأم أو بيت الحبيبة يلوحان فوق سطح الرمال كوشم على ظاهر اليدين، أو كأثر متحول من كتاب الأمس إلى كتاب الآن. بيتا محمود درويش وأدونيس تجاورا على ساحل دبي ليلة بعد ليلة، ليلتان لا تنسيان على مسرح التحولات والمرايا، ترنيما وموسيقى. استحضر درويش بيت الأم من دراما ذاته المقسومة بين جداريات الوطن، وأنشأ أدونيس بيته من كتابه الراسخ على مسرح مؤثث بتقاسيم عود نصير شمة وإنشاء منشدتين من الأوبرا المصرية. بدا درويش على مسرح قاعة (الراشدية) التابعة لفندق (البستان) مثل خيال نحيل على وشك الرحيل مع صوته المتدفق بين المقاعد الصامتة، وجثم أدونيس في مقعده الواطئ على مسرح المبنى الجديد لمؤسسة العويس مثل صقر يسلط على جمهوره المختفي في ظلام القاعة ألاحظه من مقاعد الصف الثاني. وما يجب أن تلاحظه، لا ما تسمعه فقط، ندى عيني درويش الذي عاد إلى بيت أمه:

في بيت أمي صورتي ترنو إليّ
ولا تكف عن السؤال:
أأنت، يا ضيفي، أنا؟

أطفئت أنوار القاعة، وأخذ الشاعر يمسرح ضمائر ذاته المتحاورة "ويا ضيفي.. أأنت كما كنا؟ فمن تنصل عن ملامحه؟".نصف الشاعر يعتذر لنصفه الآخر الشخصي: "همست لآخري: أهو الذي قد كان أنت.. أنا؟". بم يعترف الشاعر، ومم يعتذر، وهل يتسع المسرح لأكثر من اعتذار، وهل يفضي تاريخ الشاعر الشخصي إلى غير هذا الاعتراف الحميم؟: قلت لآخري: لا تعتذر إلا لأمك!".

نجحت حوارية درويش في إثارة الضمائر الصامتة في القاعة، وكل منها يختزن اعترافاً دفيناً على طرف اللسان، ولكن لا تعرف لمن تعتذر له عنه قبل أن تنصرف من القاعة. انسحب شهود المسرح إلى المطعم المجاور، وكنت أوخر انسحابي بالتقاط بطاقات التعريف بالشاعر المتروكة على المقاعد وفي الممرات، مؤجلاً تلفظ اعتذاري. مددت انسحابي في حدقة الشاعر الندية، مجرجرا ذيلاً طويلاً من صوته الرخيم، ناشراً إياه في سري على ليل بغداد البهيم، قبل أن ينقعه ليل دبي برطوبته فيضبب صورة الشاعر في حدقتي. وأخيراً قلت لآخري: لا تعتذر إلا لضحايا بلادك.

أنتجت رفقة الشاعر أدونيس والموسيقار نصير شمة طبقاً صوتياً غطى بسحره أجواء أكثر من العود (الكوتي) على الجوف الطنان، الصوتان الفرعونيان المجدولان، امتزاج حسي، ارتجال ولهان، هفهفة حبارى.

جلس نصير شمة على كرسي مرتفع بين مقعد أدونيس المنخفض وأريكة المغنيتين المفروشة بأبسطة ووسائد بدوية. مجلس شهرزادي منقول إلى مخدع بدوي في دار حديثة. رفع شمة قدمه اليمنى فوق مرتكز وحضن العود بجذعه ومال بوجهه الكمثري المؤطر بلحية قصيرة وشعر جعد وألصقه ببطن العود. حركت أصابعه الأوتار بمقدمة اللحن العراقي "وفراكهم بجاني" منتقلاً إلى لجة اللحن الأدونيسي الحر، بخبرة أستاذ حرب مقامات القرب والبعد، ومفاتيح الود والجفاء، وقفلات السر والعلن. سكت العود، وقرأ أدونيس مقاطع من شعره ثم سكت. خب صوت أدونيس خبب ناقة ذلول، ووقع شمة الحاناً متوازية مع (كتاب) أدونيس، ثم أتى الصوت الأوبرالي لريهام عبد الكريم:

ليس نجماً، ليس إيحاء نبي
ليس وجهاً خاشعاً للقمر

هو ذا كرمح وثني
غازياً أرض الحروف
نازفاً يرفع للشمس نزيفه
هو ذا يلمس عري الحجر
ويصلي للكهوف
هو ذا يحتضن الأرض الخفيفة

ظهرت المغنية الثانية في ثوب أسود واستقرت إلى جوار صاحبتها على الأريكة. حيث يقرأ أدونيس، يمسك نصير عوده عمودياً على ركبته المرتفعة وينصت، وتسكن المغنيتان كقطعتي حجر أسود عاصمة عربية، وكانت دبي إحدى مناخاته ومناجاته. يرأس شمة بيت العود المصري، ويقود أدونيس قافلة الشعر المتهادية بين آفاق الشرق والغرب، تلتحق بالاثنين مغنيتان (مي فاروق وريهام عبد الكريم) تدربتا في فرقة أم كلثوم على الشدو الملائكي. ليلة لا تنسى، سحر لا يمحى، وقت لن يتبدد: كلمات ترددت على كل لسان لما بلغ عناق الموسيقى والشعر مداه في دار العويس. الإلقاء المتدفق لكاهن الشعر العربي، انحناء امير مصقول بين الوسائد. وحين ينطق العود، وتهزج المنشدتان، يحتضن أدونيس وجهه بين كفيه ويطرق. جاء دور مي فاروق فأومأ لها نصير كي تغني:

أكاد ألمح أحلامي مكدسة
كأنها ورق يجتره ورق
تحيد عن أرضها من شهوة طرق
وتمّحي في مداها من دمي طرق

ظل الشعر والغناء يتجادلان ويرتجلان ويختلجان، حتى اختتمت حمامتا الاوبرا ليلتنا بأغنية مجدولة من حداء المسير إلى "الأرض النبية" التي ينتمي إليها "بهاليل" الشعر ويحتشد عليها غرباء الأوطان من كل زمان ومكان. هبطنا من القاعة العليا إلى الصالون الأسفل يحبس وجوه الفائزين بجائزة العويس في لوحات زيتية معلقة على الجدران. تركنا وراءنا الوجوه المحنطة في صالون الجوائز، وخرجنا من دار الألحان إلى فضاء دبي الذي تحوم في سمائه ملائكة الصحراء المثقلة أجنحتها برطوبة البحر.

البستان والجبل

بعد رحلة ليلتين في الخليج، رست باخرتنا (جبل علي ٣) مساء اليوم الثالث في حوض ميناء راشد بدبي. الساعة الثامنة مساء، انتقلنا من الميناء إلى (البستان - روتانا) الفندق القريب من مطار دبي. فنادق الإمارات واحات لا تحرم سكانها من نسائم الصحراء، ومياه الينابيع. تتفرق فنادق دبي بين الأبراج الزرق، مثل واحات شبحية على سطور الرمال. تقبّع قاعة استقبال الفندق قبتان متناظرتان مثل نصفي بطيخة مشلفين، يطوقهما سوار من أربع طبقات يحوي غرف الفندق المطلة على القاعة الأرضية. تنخفض القبة الصغرى على منصة دائرية مرتفعة يتوسطها بيانو، تحيط به الأرائك. وتشهق القبة الكبرى على الرواق الذي يحوي المطاعم والمشارب وفسقية الماء. يمتزج عزف البيانيست الروسية بمياه الفسقية التي تخشخش ليل نهار، وتسمع مداعبات أصابعهما في الغرف والممرات، وعلى الأجساد المائسة بأقل الملابس. تفتح الغرف إلكترونياً، وفيها خزائن سرية لإيداع الأمانات، وأكثر ما يدهشك من هذه الغرف وفرة النشرات والصحف والأدلة. رقم غرفتي (١٠٤) وعثرت في كومدينو الغرفة على دليل مصور لأشهر فنادق العالم. كان (البستان) واحداً من أرقى ثلاثة فنادق تفخر بها الإمارة على فنادق حواضر البحر وتخومها الساحلية.

جولة لاكتشاف رحاب الفندق الداخلية ستفضي بك إلى انطباع مذهل عن إمارة دبي التي تخبئ بين طرقها المستقيمة وأبراجها المتعالية بساتين ومتكئات ومطارح ومزالج أكثر غموضاً وبعداً عن الأنظار. تنفتح دبي ليلاً مثل زهرة رملية واعدة بملذات عطرية لا تقاوم. ويقال هنا - في أبعد الزوايا غموضاً - إن من يشاهد دبي مرة، لا بد أن يعاودها مرات. لقد أنشئت في غفلةمن حركة الزمان العربي البطيئة إمارة تعيد للشرق الدارس لياليه الأميرية، وأسواقه العامرة بكل فاتن وجديد ومدهش.تذكرة الذهاب إلى دبي أعادتني إلى البصرة على الباخرة نفسها في طريق الإياب، برفقة خمسمائة زائر من طائفة (البهرة) سيهبطون في (أم قصر) ولا يلبثون أن يغادروا الى لعتبات المقد سة في كربلاء والنجف الأشرف. تجمع الزوار القادمون من أقطار القارة الهندية في دبي، ولما حانت رحلتهم تدفقوا على الباخرة وشغلوا غرفات الطبقات الثلاث، الرجال بأرديتهم البيض ولحاهم الطويلة المبعثرة، والنساء بثيابهن (الكجراتية) الزاهية الألوان وأساورهن. شاهدنا غروب الشمس من طوار الباخرة، وانطوى سطح البحر مثل ذكرى خضراء موشحة برفوف ويراعات الأسماك البازغة من ظلمة المياه إلى السطح المزبد المضطرب برفاس المؤخرة.

انعطفت الباخرة حول لسان جزيرة (حجام) المواجه لساحل جزيرة (بوبيان) وألقت مراسيها في (خور عبد الله) بانتظار أن يسمح لها بالرسو على رصيف الميناء في صباح اليوم التالي.

قاسمني المنام في الغرفة رقم (١٩) زائران من كراتشي، تركا لي على حافة مغسلة الحمام شعرات من لحيتيهما علامة على حلول ساعة الوداع. حاول الزوار (البهارتيون) تبديد وحشة الليلة الأخيرة بإنشادهم قصيدة مدونة في كراس من نظم (مولانا طاهر سيف الدين) في مدح أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (ع). اجتمع الزوار في قاعة المطعم، وخلت الممرات الضيقة إلا من دمدمة الشفاه المتحركة بخفوت، المتسللة مثل "نور أزلي" من اللجة المظلمة. التقيت بزوار لم ينضموا إلى المنشدين، هائمين في ممرات الباخرة المطلية باللون الأزرق، وقابلتني وجوه نهضت من مكان ناء منسي. التقيت بشخصية (الحاج) خارجاً من قصة كتبتها عام ١٩٧٤ مع شخصيات هاربة من قصص الرحلات البحرية التي لم تبلغ هدفها. كانت الباخرة راسية بهدوء في قنال الأرواح الغارقة خلال حروب الخليج الثلاث، وكانت دمدمة الزوار (البهراتيين) الخافتة تجذبها من نومها، فتختلط الأرواح بالأرواح حتى طلوع الصباح، وافتراقها على رصيف (أم قصر).

بيـــــان

وجه الصحفي المصري سيد نصار اتهاماً للشاعر العراقي علي الشلاه مدعياً - بوثيقة - تلقيه عشرة ملايين برميل نفط من النظام المخلوع، مع الثقة العالية ببراءة زميلنا الشاعر عن التورط في هكذا صفقة، يعرف الجميع لمن كان يمن بها صدام على أزلامه، فقد أثبتت وثيقة وزارة النفط (د٣ / إعلام / ٢٤٢ / ٣٢٤٧) الصادرة في ٢٠٠٤/٣/٢٠ جواباً على كتاب المركز السويسري بطلان هذا الاتهام، إذ أفادت الوزارة بعدم ورود اسم الشاعر علي الشلاه في سجلاتها ووثائقها حول الموضوع. وفي حين تؤكد هذه الحادثة نصاعة موقف المثقفين العراقيين الحقيقيين، فإنها تدل على زيف بعض المتسترين بالثقافة والمتاجرين باسم الحقيقة لمصالح شخصية بحت لم تدفعهم إلى مساندة نظام قبيح كنظام صدام فحسب، بل تجاوز ذلك إلى إتهام العراقيين متخذين أبشع الوسائل والطرق للإساءة إلى وطنيتهم وحبهم لأرضهم، وللتغطية على المواقف المخزية التي وقفها سيد نصار والمرتزقة من أمثاله الذين كانوا يتسلمون هبات (فائدهم الضرورة) على حساب آلام العراقيين وجوع أطفالهم ودمائهم التي طالما أهدرها في حروب (البوابة الشرقية) وغيرها، وفي مجازره ومقابره الجماعية التي سكت عنها معظم مثقفي العرب، متشاغلين بتوسيع جرائمه وتسويقها على أنها انتصارات قومية. إن اتهام الزميل علي الشلاه على هذا النحو هو محاولة سافرة لإهانة الأدب العراقي والنيل من الأدباء الشرفاء، وهي مزايدة على وطنيتهم ومتاجرة بمبادئ لا يملكها أولئك الذين يكيلون التهم أنفسهم، ونؤكد هنا من أرض العراق موقفنا الداعم لأدبائنا الذين شردهم صدام ونظامه، وما زال يطاردهم كلعنة تحملها أبواقه التي طالما زقها نفط العراق زقاً.

الهيأة التحضيرية
للاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين

من اصدارات دار المدى

طيور الشرق التعيسة تظهر في "اقمار عراقية سوداء في السويد"

رواية علي عبد العال الكاتب العراقي المقيم في السويد "اقمارعراقية سوداء في السويد" تتجاوز بعنوانها لعبة "علم البديع" على رغم ما يوحيه العنوان من "جناس" في لفظتي السويد وسوداء.. لتتناول وضعاً ماساوياً ابعد من ذلك.. إنها تحكي بمحتوى قاس واسلوب شعري حكايات بعض "الاقمار" البشرية الذابلة الخابية الضوء في بلاد الليل الطويل والثلج.

الرواية تحلل بشعرية وعمق عقليات واحداثاً في اوساط هؤلاء المهاجرين إلا أنها تتسم بنقص في التماسك الروائي فهي قصص وحكايات يجمعها موضوع متشابه يكاد يكون واحداً. وقد يؤخذ عليها طغيان الجنس عليها وكأنه كل شيء في الحياة وتركز على بعض تفاصيله. فكانها تجسيد روائي لمقولة محمد الماغوط "أيها العرب يا حبالا من الطحين واللذة."

الرواية تقع في ٢٤٥ صفحة متوسطة القطع صدرت عن "دار المدى" في دمشق، وهي تعيد طرح بعض المسائل التي عرفها القارئ في اعمال منها رواية توفيق الحكيم "عصفور من الشرق" وفي قصة يحيى حقي "قنديل أم هاشم" وحتى عند الطيب صالح في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" وإن كان الموسم بالنسبة إلى اللاجئين العراقيين موسم "تهجير" إلى مكان اكثر توغلاً في الشمال من بريطانيا وباريس.

ونجد مثلاً أن "محسن" بطل توفيق الحكيم في عصفور من الشرق قد تغيرت نظرته إلى الغرب بعد اعجاب عميق بل انبهار شديد بتراثه وذلك اثر خيبة نتجت عن علاقة حب بدا إنها من طرف واحد وعلاقات جنسية اقامها مع فتاة باريسية ما لبثت أن مارست حريتها من خلال نمط حياة تعودت عليه وعادت إلى صديقها السابق فخرجت بذلك عن تقليد "الامتلاك" الشرقي المقنع باسم الوفاء و"الحب الروحي" عند البطل الذي اعتبرها خائنة ومادية كحضارة بلدها. بطل قصة قنديل أم هاشم كان اكثر اقناعاً إذ فارق صديقته البريطانية التي كان لها دور في تطوير شخصيته فراق اصدقاء وعاد إلى الشرق ولم يطل به الامر حتى خفت ثورته على بني قومه فهادن الحياة وتزوج زواجاً تقليدياً.

أما مشكلة عدد من اشخاص رواية عبد العال فتطرح الموضوع في شكل مختلف. بعض هؤلاء من العراقيين العرب والاكراد يعيش في الغرب ويبني لنفسه مكانة ويتمتع بنمط حياة حر سياسياً وفردياً واجتماعياً.

وعندما يريد الزواج "يستورد" فتاة من بلده ويسافر إلى دمشق ليعود بها إلى السويد. وسرعان ما تعود مسألة الحرية والامتلاك لتطل في شكل آخر فكما تكيف الرجل بالحياة الغربية ومارس حريته فالمرأة بعد مدة من الزمن تتكيف بانماط حياة النساء الغربيات وتكتشف حريتها. وتطل هنا مشكلة ذات وجهين أولهما أن يرفض الرجل فكرة ممارسة المرأة حريتها كما تفعل الغربيات أو كما يفعل هو. وثانيهما أن تسيطر السطحية والجهل على بعض النساء فيتوهمن أن الحرية هي تقليد بعض المظاهر التافهة في حياة نساء غربيات فلا تلبث الواحدة من هؤلاء البسيطات أن تتحول إلى ما يشبه الساقطة الغربية عوضاً عن المرأة المحترمة. ومن هنا تقع اعمال قتل وطعن في اوساط هؤلاء الناس.

ويصل الامر عند بعض الرجال من ذوي الثقافة والفهم إلى أن يتمنوا لو أنهم عاشوا حياة غربية مع زوجة غربية ولم يقعوا اسرى المرأة الشرقية "المستغربة" بجهل وامية فكرية بين هؤلاء "عصافير" ند مت لعودتها إلى الشرق للزواج.

تتمثل المشكلة في قصة أحد هؤلاء الرجال وقد حضه اصدقاؤه على الانتقال من كندا الى السويد للزواج بفتاة من عائلة معروفة في بلده. تخلى عن صديقته صوفيا الرائعة المخلصة وتزوج تلك التي ما لبثت أن نغصت حياته. يتذكر صديقته نادماً فيقول "كنت طفلها الحبيب المدلل وزوجها الشرعي وعشيقها المحرم وفتى احلامها. وكنت اباها واحياناً أمها واخاها. كانت على استعداد لتهبني كل شيء.. المال والحب والثقة المطلقة فلماذا قلبت حياتي رأساً على عقب. إنهم الاصدقاء الطيبون الذين رأوا أن الاوان قد آن كي افكر بالاستقرار والزواج بامرأة من بني جلدتي."

يضيف ناقماً على اصدقائه "كانوا متزوجين من نساء اقل ما يمكن اخبارك عنهن بكل امانة وصدق انهن كن دميمات وغبيات.. لكنهن يتمتعن بقدر كبير من التسلط على اولئك المساكين. وكم مرة راودتني الرغبة بقول ما ارغب حقاً بقوله في صدد حياتهم التافهة وانجابهم الاعمى للاطفال من دون هدف أو تخطيط فضلاً عن خضوعهم المذل إلى اولئك النسوة المسترجلات." عبد العال درس القانون والسياسية في جامعة بغداد وعمل في الصحافة العربية والسويدية وله عدد من الروايات والمجموعات القصصية صدر بعضها في بيروت وبعضها الآخر عن "دار المنفى" في السويد.

يتحدث الكاتب عن "يعقوب" إحدى شخصياته موجزاً الأزمة التي يعيش فيها معلقاً بين السويد والوطن. إنها ازمة اغتراب روحي في الوطن وحنين دائم إلى هذا الوطن. يقول عنه إنه من العراقيين الكثر التواقين إلى العودة إلى وطنهم "المشكلة التي لا تجعلنا نثق بنيات يعقوب بالعودة إلى الوطن تكمن في إنه جرب الانتقال من السويد إلى بلاد الشرق مرتين." لكنه فشل فشلاً ذريعاً بتحقيق هدفه السامي بالاستقرار الروحي هناك. والامر الآخر إنه عاش في السويد ربع قرن بالكامل وهو ينسى هذه الحقيقة البسيطة كلما فكر بتنفيذ مشروع العودة إلى الجذور. وهو ينسى ربع قرن من عمره قضاه في نظام مهما كانت سلبياته وشروره إلا أنه نظام متطور ومتماسك وغير مضطرب على كل حال. إنه ينسى خدمات التليفون والماء الحار والديمقراطية التي وفرت له حق الانتخاب والتصويت على سياسيين يختارهم هو بنفسه.

وينسى إنه لم يسجن أو يعتقل طوال هذه الفترة من حياته بسبب معتقداته الايديولوجية ولا بسبب شتائمه التي لا تنقطع على كبار ساسة البلاد. وهو ينسى ان بريده وتليفونه لم يراقبا من قبل الشرطة السرية. وهو يعمل في الدولة بكامل الحقوق الممنوحة للمواطنين السويديين ما يقارب العشرين عاماً حتى حصوله على التقاعد المبكر. تلك هي مشكلة يعقوب الحقيقية لذا لا يجد أحداً يثق به حين يتكلم بعاطفته الجياشة عن "العودة المقدسة إلى الوطن."

زيـــــــارة

سلمان الجبوري

إلى رشـــدي العـــامل

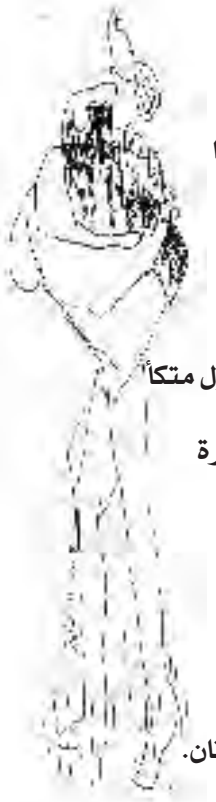

حين فاجأني
كان ظل المساء
يكور روحي ويعصرها
نقرة.. نقرتان..
وصار أمامي
فتح النافذة
أزاح ستارها...
ثم ألقى بعكازه جانباً
واستوى جالساً فوق أول متكأ
- "لا أحب الظلام!.."
ثم أبعد خصلته النافرة
وصالب ساقيه
أخرج علبته،
قدم واحدة..
- لا أدخن.. شكراً
- "نسيت.."
كان عبر الدخان
ناحلاً.. شاحباً
وعيناه بئران مهجورتان.
- "أتغى تذكغ الآن...
يوم غطيت وجهي بغطائي..
وبكيت كثيغاً بصمت بعيداً عن
الآخغين؟.."(١)
ثم أخرج من جيبه ورقاً،
فضة،
فإذا حفنة من تراب
تتساقط ما بيننا
- "كتبت القصيدة.. قبل دقائق"
وحين انتهى.. لم يقل كلمة.
أعاد القصيدة في جيبه.
تناول عكازه،
واختفى.
تنبهت..
- كنت في حلم؟.. ربما..!
غير أني وجدت على الأرض بعض تراب..
وسيكارته لم يزل يتصاعد منها الدخان على
المائدة
ونقرة عكازه تتواتر في أذني
في الممر القريب!

(١) كان رشدي يلفظ الراء غيناً وكان فراشنا متلاصقين في معتقل خلف السدة عام ١٩٦٣. وفعلاً بكى متألماً وغطى رأسه وهو ينشج بصمت!